الفَصْل الثالِث

وِلادَة قَيْصَرِيَّة للتّارِيخ

obeikandl.com

obeikandl.com

المأساة توقظ الضمير

في بداية حقبة السبعينات، بدأت بعض الشُعوب الإثيوبية تتململ من السياسات الإقطاعيَّة الإمبراطوريَّة، والتي كانت قد زادت من قهر الطبقات المسحوقة، ووضعت معظم ثروات البلاد في يد أقليَّة نفعيَّة من الأرُستقراطيين الذين كانوا يُسبِّحون بحمد السُلطة.

في تلك الفترة، بدأت الطلائع الطلابيَّة في جامعة الإمبراطور - "أديس أبابا" لاحقاً- تنشط سياسياً، فتكوّن الحزب الثوري لشعوب إثيوبيا، لكنه ما لبث أن انقسم على نفسه، وخرجت منه الحركة الاشتراكيَّة لعموم إثيوبيا "ميسون" (١) في العام ١٩٧٢، وظلّ العمل سرياً في البداية. كان ذلك الانقسام أشبه بما حدث في موسكو بين البلاشفة والمناشفة.

في العام ١٩٧٣، تحالفت الطبيعة مع الإقطاعيَّة الإمبراطوريَّة، فحدثت مجاعة هائلة في إثيوبيا، حاول الإمبراطور أن يتكتم عليها تكتماً شديداً، لكن أحد الصحفيين الأجانب استطاع تسريب أنباءٍ عكست المأساة من خلال وسائل الإعلام، الأمر الذي أدّى لاستياءٍ عالمي، لا سيّما وأن صُوَر الجياع التي ازدحمت بها وسائل الإعلام كانت تلحق بها صور للإمبراطور وهو يُقدِّم بنفسه ما لذَّ وطاب لأسَدَيْهِ الرَّابضين مهابةً بجانبه، وكلابه التي ضارعت الأسود في أحجامها.

إن المُتابع للشأن الإثيوبي يستطيع أن يخلص ببساطة إلى أن المجاعة ظلت على الدوام إحدى آليات السُلطة الحاكمة، على اختلاف طبيعتها، سواء كانت إمبراطوريَّة إقطاعيَّة (عهد هيلاسلاسى)، أو عسكرية مُؤدلجة (مانغستو هيلاماريام)، أو ديمقراطيَّة مُنتقاة (تحالف الأهودق).

مع ذلك، ففي المآسي الإنسانيَّة دائماً ما تستيقظ ضمائر الشعوب، وقد حرَّكت تلك المأساة السَّاكن في نبض الشارع الإثيوبي، أو بالأحرى نُخبته وطلائعه، فأصبح يُعبِّر علناً عن سخطه على الأوضاع المتردية، وبرغم حداثة القوى الوطنية الإثيوبيَّة في مضمار العمل السياسي، إلاّ أن الحزب الثوري والحركة الاشتراكية "ميسون" التي انشقت عنه، استطاعا القيام بتعبئة جماهيريَّة واسعة، بدأت تتدفق خارج أسوار الجامعة وتلتحم مع المطحونين والمغبونين والمسحوقين من طبقات المجتمع الإثيوبي بعد أن تدثروا بالصمت طويلاً.

تواترت إليهم في العاصمة أخبار المجاعة التي ضربت إقليم "وللو" و"تغراي" في الشمال الإثيوبي، والتي أودت بحياة ٢٠٠ ألف نسمة، تساقطوا كأوراق الشجر، بينما الإمبراطور رافلٌ في بحور الرفاهيَّة.

تراجيديا أشبه بالأساطير الإغريقيَّة، اختلطت مأساتها مع مأساة نحو ١٥٠ ألف مجذوم وملفوظ، كانوا يهيمون في شوارع المُدُن والقُرى الإثيوبية، و٤٥٠ ألف مصاب بالسُلِّ، و٧ ملايين أنهكتهُم الملاريا، وفلاحين تقوَّست ظهورهم ولا يملكون سوى ٥% من الأراضي الزراعيَّة، في حين امتلك النُبلاء ٦٥%، واستحوذت الكنيسة على نسبة الـ٣٠% الباقية.(٢)

كانت رائحة الموت والبُؤس كفيلة بإيقاظ الحِسِّ الوطني وبث الروح فيمن تبقى، وعندما أطلَّ العام ١٩٧٤، كانت شوارع أديس أبابا تعرف للمرَّة الأولى في تاريخها تظاهُرات الغضب، وكان قِوَامُها ذات الوجوه التي فَرَضَ عليها الإمبراطور الرُكوع والسُجود حينما يمُر موكبه المهيب في شوارع أديس أبابا.

كانت الفترة نفسها قد شهدت بداية تمرُّد وعصيان قوَّات الإمبراطور التي كانت تقاتل في إريتريا، بعد أن مُنِيَت بهزائم متتالية على يد قوَّات الفصائل الإريتريَّة. كذلك تلك التي كانت تقاتل في جبهة الأوغادين، ثم أعقب ذلك إضرابٌ قام به سائقو سيارات الأجرة مِمَّا أدَّى إلى شلل العاصمة، وذلك بعد أن قرَّرت الحكومة زيادة أسعار البنزين بنسبة ٥٠%، وقد أقدمت على هذا القرار مُرغمة بعد أن ارتفعت أسعار النفط في الأسواق العالمية جرَّاء حرب "أكتوبر ١٩٧٣"، وتلا ذلك إضراب المعلمين البالغ عددهم نحو ١٧٥٠٠ كانوا يُشكِّلون أكثر من نصف طبقة المهنيين، بما يعني أن عوامل شتى قد تكاملت، علماً بأن أياً منها منفرداً كان يستطيع الإطاحة بأعتى صُروح الحُكم.

ظلت المظاهرات مستمرَّة ومتقطعة لعدة شهور، إلى أن ظهرت المُؤسسة العسكرية ذات صباح مفعم برائحة المطر في شوارع أديس أبابا، وكان ذلك تحديداً في ١٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٤ لتعلن طي صفحة الإمبراطور بعد نصف قرن من حكمه.

أقدم نفرٌ من صغار الضُبَّاط الذين نفَّذوا الانقلاب على اعتقال الإمبراطور، ونقله من مقرِّ إقامته في سيارة صغيرة (فُلْكسوَاجن) إلى مقرٍ آخر، ليكون تحت الاعتقال التحفظي، على الرغم من أنه كان قد فقد السُلطة فعلياً قبل ذلك بعدَّة شهور، حينما سقطت حكومته في فبراير (شباط) ١٩٧٤، بالاستقالة التي تقدَّم بها رئيس الوزراء "اخليلو هابتي وُلدي" وكل أعضاء الوزارة، وقد خلفه "أندا الكاتيشو ماكونين"، لكنه لم يستطع فعل شيء، فتواصلت المظاهرات وتمَّ اعتقاله أثناء اجتماع وزارته، ووضح منذ الحكومة الأولى أن دور الوزارة البُرجوازيَّة كان قد تضاءل فعلاً.

obeikandl.com

لكن الإمبراطور الضئيل القامة والضعيف البنية كان من فرط الألقاب التي أحاط بها نفسه (أسد يهوذا.. سبط صهيون.. المختار من الله.. ملك ملوك إثيوبيا.. سليل النبي سليمان)، وسياج الرَّهبة المتين الذي طوَّق به بلاطه، كان قد جعل تصديق الواقع أمراً محالاً، فما كان أحد يصدِّق - ربَّما حتى الضُبَّاط الذين أقدموا على اعتقاله - سقوط الأقنعة وانقشاع الأوهام في بلدٍ خيَّمت عليه الظلال الأسطوريَّة، وأمسكت بمفاصله، بل لم يتورَّع حُكَّامه في استخدامها في السُّلطة وفي أنفسهم، درءً لأي شُبهة قد تحط بهم إلى مدارك بني البشر.

ولا جدال أن الإمبراطور هيلاسلاسي قد بَرَعَ في ذلك، واسمه في الأصل "تفري ماكونين"، لكن نسبة إلى أن أي ملك في إثيوبيا هو في نفس الوقت راعي كنيستها ورئيسها، مثلما كان عليه الحال لدى قياصرة روسيا قبل قيام الثورة البلشفيَّة، اتخذ الإمبراطور "تيفري ماكونين" لنفسه اسماً جديداً يتناسب مع براعته في خلط اللاهوت.. بالأسطورة.. بالسياسة، فاختار اسم "هيلاسلاسي"، والذي يعني قوَّة الثلاثة (الأب، الابن والروح القدس). ولربَّما كانت هذه الهالة هي التي جعلته حراً طليقاً لفترة تناهز السبعة أشهر بعد فقدانه السُّلطة الفعليَّة.

كان التحوُّل في بنية الشُعوب الإثيوبية دراماتيكياً هائلاً، ومشبعاً بكُلِّ عوامل الإثارة. فالانقلاب الذي تمَّ لم يكن انقلاباً تقليدياً، ونُفِّذ بين عشيَّة وضُحاها كالذي يعرفه الناس، إنما كان انقلاباً بطيئاً، ظلَّ يضرب في قواعد السُّلطة بهدوء، لكنه كان ضرباً مُوجعاً. والانقلابيون لم يُكوِّنوا تنظيماً نمطياً يُعَدُّ لمثل هذا العمل بدقة مُنذُ زمنٍ طويل، إنما الحدث كان قد فرض عليهم الشكل التنظيمي رغم أنه وُلِدَ فطيراً. وقد اتضح أن الشعوب الإثيوبية نفسها - المُناط بها التغيير - في حاجة ماسَّة إلى فترة تستعيد فيها وعيها وتخرج من "الغيبوبة" التاريخية التي رزحت تحت ويلاتها على مدى قرون من الزمن.

لم ترفع الطُغمة الانقلابيَّة في بادئ الأمر أي شعارات تؤطرها في خانة أحد المعسكرين، الشرقي أو الغربي، لكنها اهتدت بشعار وطني يتيم "إثيوبيا أولاً"، وذلك لاستدرار تعاطف شعوبها، مع أن الشعارات وحدها - سواء كثرت أم قلت - لا يمكن أن تغيِّر واقعاً، ناهيك أن هذا التغيير مقصودٌ به واقع الشعوب الإثيوبيَّة التي اختلط فيها التخلف بالخُرافة، وامتزج أسلوب الحُكم بالأسطورة.

لم يكن الضُبَّاط الانقلابيون - كما ذكرنا - يعلمون ماذا يريدون تحديداً، خاصَّة وأنهم قد جُمِعوا بصورة متعجِّلة من أربع وحدات عسكريَّة، اثنتان تُحاربان في إريتريا وإقليم الأوغادين، وواحدة داخل العاصمة أديس أبابا، والأخيرة متفرِّقة في أنحاء أخرى من البلاد.

تمَّ جمع أولئك الضُبَّاط (١٢٠ ضابطاً) بعد موجات التمرُّد الواسعة التي حدثت في أوساط الجيشين اللذين يقاتلنا في إريتريا والأوغادين، وتزامن ذلك الحدث مع المظاهرات التي كانت تسير متقطعة في شوارع أديس أبابا لعدة شهور.

شكّل الضُبَّاط صيغاً تنظيميّة في المرافق المختلفة، وهي التي سُمِّيت بـ"المجالس" أو "اللجان".. أو "الدَّرق" في اللغة الأمهريَّة.. وامتدَّ ذلك حتى هرم السُلطة، ولكن دون تسمية رئيسٍ بعينه، لكنهم اقترحوا بعد فترة تزكية أحدهم "أتنافو آباتي"، نظراً لعدَّة أسباب، منها عامل السِن والإجماع على احترامه، وتمَّ ذلك حتى يتيسَّر لهُم ضبط اجتماعاتهم، ولكن دون تسميته رئيساً للبلاد، في حين أصبح مانغستو هيلاماريام سكرتيرا للمجلس.

في خلال ذلك، كان التنظيمان الوحيدان (الحزب الثوري لشعوب إثيوبيا والحركة الاشتراكيَة لعموم إثيوبيا "ميسون" التي انشقت عنه) يعملان من خلف الكواليس في حماسٍ وتسابُقٍ شديدين، وبصورة غير مرئيَة لاستقطاب أكبر عدد من كبار الضُبَّاطُ الذين تمَ حشدُهُم من الوحدات الأربع، سيَما أولئك الذين أصبحوا على سُدَّة الحكم.

كان مانغستو هايلاماريام عسكرياً محترفا، لكنه لم يتمتع بأي تأهيلِ أكاديمي عالٍ، وينحدر من أسرة إثيوبيّة متواضعة. كان والده يعمل حارساً في أحد قصور الإقطاعيين فألحقه بالجيش في عُمرٍ مُبكِّر، إذ لم يتجاوز آنذاك الخمس عشرة سنة، وتطابقت رغبته مع رغبة والده في هذا الحقل، لأنه كان مُحبّاً للجيش، وقد بُعِثَ لاحقاً في دورة عسكريَة إلى الولايات المتحدة الأمريكيَة، وتدرَّج بعدئذٍ في سلك العسكريَّة، وكان يتمتع بكُلِّ الصفات التي يمكن أن تتوفَّر في ضابطِ محترف، من ديناميكيَّة في الحركة، وحماسٌ دافق في العمل العام، وقدرة على اتخاذ القرار، مع جرأة لم تخلُ من تهوُّر.

كان أحد رفاقه الذين عاصروه منذ بداية الحركة الانقلابيّة قد سجَّل آراءه وانطباعاته عنه في تلك المرحلة، بعد انشقاقه من الحزب وتخليه عن مناصبه الحكوميَّة أيضاً في العام ١٩٨٥، ومن ثمَّ لجوئه إلى الولايات المتحدة الأمريكيَّة، والتي ما زال يعيش فيها لاجئاً، حيث قال عن مانغستو في بداية عهده: «**عندما قيَّمته واضعاً في الاعتبار مستواه التعليمي والوظيفة التي يشغلها، وكذلك نشأته، وجدتُ أنه شخصٌ جيِّد ويتحلى بالهدوء في أحلك المواقف، ولا تبدُر منه إطلاقاً أي تصرُّفات تنم عن الخيلاء والتكبُّر. وجدتُ أنه شخص مخلص وذكي لدرجة فاقت توقعي، وفي الأسابيع التالية صار يمتلك إعجابي أكثر فأكثر، واقتنعتُ أنه الأجدر بالقيادة من بين أعضاء "الدَّرق"».**(٣)

بهذه الصفات، وجد تنظيم "ميسون" ضالته في "مانغستو"، فبدأ يبذر فيه الأفكار الاشتراكيَة، فأبدى حماساً شديداً وتجاوباً سريعاً أذهل كل قادة التنظيم، بما فيهم "هايلي فيدا"، الذي كان يشغل منصب أمينه العام. لم يقتصر تأثير تنظيم "ميسون" على "مانغستو" وحده، فقد شمل آخرين، وأصبح التنظيم من خلالهم يطرح أفكاره تدريجياً لتكون مرجعيَّة لتثبيت ركائز الحُكم.

ذكرنا أن المجلس "الدَّرق" لم يكن كياناً مهيكلاً بأسُسٍ تنظيميَّة معروفة، مثلما لم يكن له مضمون سياسي واضح، وحلاً للمشكلة الأولى عندما تداولها المجلس بالنقاش، كان الأعضاء أميل إلى اقتراح رئيسٍ، وكان مانغستو في طليعة المُتبنين لهذا الرأي، وأبدى في الوقت نفسه حماساً للجنرال "أمان عندوم"، وهو ما لاقى إجماعاً لدى الأعضاء، وحيال تمنُّع غير متشدِّد أبداه عندوم، تولى مانغستو مسألة إقناعه.

امتلك تنظيم "ميسون" كل هذا التأثير على أعضاء المجلس، على الرغم من أنه كان أصغر حجماً من الحزب الثوري (كان هذا الأخير يتمتع بعضويَّة كبيرة لم يؤثر فيها الانشقاق، لكنه كان مترهِّلاً قاعدياً وغير منسجم قيادياً، على عكس "ميسون").

قبل الجنرال "أمان عندوم" التكليف.. كان ضابطاً كفؤاً، يتحصَّن بثقافة عميقة، ويجيد التحدُّث باللغتين العربيَّة والإنجليزية وشيء من الإيطاليَّة، إلى جانب الكثير من اللغات المحلية الأخرى.. كان إريتري الأصل، عاش ونال جزءً من تعليمه في السُّودان، وقُبَيْل الانقلاب كان يرأس الجيش الثالث العامل في إقليم الأوغادين.

كان اختيار "عندوم" قد صاحبته 'بروباجاندا' إعلاميَّة ضخمة، تَحَكَّم تنظيم "ميسون" في مفاتيحها، وتحرَّكت فيها الظلال الأسطوريَّة المُخيِّمة لعشرات السنين، وظنّ البعض أنها انحسرت بسقوط الإمبراطور. كانت الآلة الإعلاميَّة الدعائيَّة من القوَّة والتأثير بحيث كاد أن يكون "عندوم" هو مبعوث العناية الإلهيَّة المُسخَّر لرفع صخرة 'سيزيف' عن كاهل الشعوب الإثيوبيَّة. وتطابق ذلك أيضا مع الخطاب السياسي الذي حشدت فيه كل الأماني والتطلعات، الممكن منها والمستحيل.

أتبَعَ الجنرال "عندوم" ذلك بزياراتٍ لمُؤسسات القطاع العام، حيث نجح في إنهاء سلسلة من الإضرابات عن العمل، والتي هدَّدت دولاب الدولة بالتوقف. ثم قام بتحرُّكاتٍ ميدانيَّة بين أفراد الجيش في الوحدات المختلفة، وخاطبهم بلغة مؤثرة طلب فيها منهم أن يرفعوا رؤوسهم بعد أن طأطأوها طويلاً، وكان لهذه العبارة مفعول السحر.

قام "عندوم" بزيارة إريتريا، وتوقف في عدة مناطق فيها، وفي كُلِّ منطقة خاطب أهاليها باللغة المحليَّة التي يُجيدونها، وكانت المُفارقة في خُطبه إدانته للمذابح التي حدثت للمواطنين الإريتريين إبان عهد الإمبراطور هيلاسلاسي، وإطلاق سراح السُجناء السياسيين، والاعتراف بخصوصيَّة الواقع الإريتري، ولكن دون أن يقدِّم وعداً بعينه.

عند عودته إلى أديس أبابا وتقديمه تقريراً لمجلس "الدَّرق" عن زيارته تلك، اشتمُّوا رائحة بَدَت مُزعجة لهُم، وبدأت الظنون والشُكوك تتمدَّد، خاصَّة أنه

اقترح حلولاً سلميَّة للقضيَّة الإريتريَّة، فقُوبِلَ اقتراحه بمُعارضةٍ شديدة من البعض، وآخرون أطلقوا العنان في اتهامه بأنه يسعى لذلك انطلاقاً من تغليب رغبته في مساعدة "بني جنسه"، وترافق ذلك مع اعتراضه على قرارٍ صَدَرَ في غيبته، وقضى بإعدام ٦٠ وزيراً، منهم ٣٢ جنرالاً كانوا ضِمنَ سَدَنَة نظام الإمبراطور، إلا أن القرار لم يُنفَّذ حتى ذلك الوقت.

أطلَّت المشاكل برأسها بينه وبين أعضاء المجلس، الذين أصبح بعضهم يُعِدُّ العُدَّة لصراعٍ محتمل على السُّلطة، ويتأهَّب لخوض غِمَارها، حتى وإن لم يمتلك نواصيها، ومع تطوُّر ذلك، آثر الجنرال "عندوم" الاعتكاف في منزله كتعبيرٍ عن عدم رِضَائه عمَّا يحدُث.

أصدر المجلس قراراً بتنفيذ عقوبة الإعدام في الوزراء وأركان النظام الإمبراطوري من كبار الجنرالات، بعضُهُم كان من الرَّاديكاليين الذين أيَّدوا، أو متعاطفين أصلاً مع موقف "عندوم"، وخشوا أن يُؤدِّي ذلك إلى تذمُّر في أوساط القوَّات المُسلحة بوحداتها المختلفة، خاصَّة وأنها إلى ذلك الوقت لم تمسَّها يد الانقلابيين، فقد ظلت على حالها الذي تركه عليها الإمبراطور. كما خشوا في الوقت نفسه، أن يتسرَّب خبر اعتكاف "عندوم" إلى تلك الوحدات، لاسيَّما وأنه قد حَظِيَ بشيءٍ من تقديرها واحترامها، وقطعاً لدابر هذا وذاك، قرروا إحضار الجنرال "عندوم" من منزله وتنفيذ حُكم الإعدام فيه أيضاً.

وقد سَرَدَ أحد أصدقائه المُقرَّبين الأمر على النحو التالي: «**أصدقاء أمان - وأنا من بينهم- حاولوا إقناعه بالهُروب، لكنه قال لنا: لن أدير ظهريِ وأعدو، فأنا جنرال، وإذا جاءوا إليَّ لاعتقالي، فلن يُخرجوني من بيتي كالخروف.. والواقع أن بعض الضباط أرادوا اختطافه للحفاظ عليه، لكن الوقت كان قد سبقهم**».(٤)

عندما ذهب بعض الجنود إلى الجنرال "عندوم" في منزله لتبليغه بأمر الحضور، ازدراهم.. ذلك لأنه هو بدوره أيضاً اشتمَّ رائحة غير مريحة، فانفَعَلَ أثناء النقاش وهُم أمامه، وقام على الفور بإطلاق الرصاص عليهم، حيث أصاب اثنين منهم، ثم وضع المُسدَّس تحت فكه الأسفل، وبصورة تشبه ما يحدُث في أفلام الغرب، ضغط على الزناد، واضعاً حداً لحياته التي وَمَضَ نجمها لبرهة في سماء السُّلطة، ثمَّ خرَّ صريعاً في لحظةٍ غفا فيها التاريخ الإثيوبي.. واستيقظ الرِّفاق.

عندما ووريَ الثرى، تحرَّكت ذات الآلة الإعلاميَّة التي كادت أن تجعل منه بطلاً أسطورياً، لتُظهِرَهُ بعد موته بمظهر "الابن الضال"، الذي أراد الانحراف عن خط الثورة وإهدار مكتسبات الشعب.

في أثناء ذلك، وبعد فترة وجيزة من إعدام أركان النظام الإمبراطوري، الذين قُصِدَ أيضاً أن يتزامن إعدامهم مع "عندوم" لتمييع تأثير صدمة إعدامه في

أوساط الجيش، من خلال تلك الصورة الجماعيَّة، صَدَرَت الأوامر خِلسة بالتخلص من الإمبراطور نفسه، والذي كان قد اقتيد بعد اعتقاله إلى إحدى القُصُور، وتحفظوا عليه في إحدى الغُرف بلا أنيسٍ أو جليس، سوى واحد من خَدَمِه ظلَّ وفياً له كل عمره.

لم يكُن أمر التخلص عن طريق الإعدام مثلما فعلوا مع أركان نظامه، وإنما آثروا طريقة تليق بمقامه الملوكي، أو تتسق وضآلة جسمه الذي أوهنته السُنون، فدخل عليه عددٌ من صغار الضباط بعد أن صرفوا خادمه، وقاموا بإحكام ملاءة الكتان التي كانت تغطيه وضغطوا عليها حتى زُهِقَت روحه وصَعِدَت إلى بارِئِها، ثم أعلنت السُلطة الحاكمة وفاته بخبرٍ صغير، من يقرأه يظن أنه أحد ضحايا المجاعة في أحد إقليمي "وللو" أو "تيغراي". وفيما بعد، قَبَرَهُ مانغستو في غرفة مكتبه الخاص، ووضع كرسيِّه عليه، ربَّما استخفافاً بأسطورة إثيوبية شاعت إبان حُكم هيلاسلاسى تُؤكِّد أن "الإمبراطور لا يموت"، وأنه "سيحيا ليقتُلَ قاتله".(٥)

تمَّ اختيار الجنرال "تيفري بانتي" خلفاً للجنرال الرَّاحل "أمان عندوم" بصورة أشبه بالانقلاب المُصغَّر (ويُقال أنه كان من أقرباء الجنرال عندوم)، وكان "تيفري" رجلاً محافظاً ومتديِّنا، شغل قبل ذلك منصب قائد الجيش الثاني المرابط في إريتريا، وتحوَّلت السُلطة هكذا، على الرغم من أن "مانغستو" كان وقتها متعطِّشاً لتسلم مقاليد الرئاسة بعد أن تشبَّع تماماً بالأفكار الاشتراكيَّة، لكنه كَبَتَ تلك الرغبة مؤقتاً، خضوعاً لرأي الأغلبية، أو مُحنياً رأسه لرغبتها، ومُظهراً الإخلاص في نفس الوقت لهذا القرار، بل مُزايداً أحيانا بأنه تمَّ بناء على مشورته، وفي مقابل ذلك، كان قد أزمَعَ على إدارة عجلة السُلطة من خلف الكواليس.

الثورة تأكل بنيها

بدأ تنظيم "ميسون" يشير على مجلس "الدَّرق" بضرورة التخلص من جيش الإمبراطور، وخاصة الحرس الخاص، الذي كان قوامه نحو ٥ آلاف جندي، مُدرَّبين تدريباً جيداً على شتى فُنُون القتال، واقترح التنظيم دفعهم إلى الجبهات المشتعلة في إريتريا والأوغادين.

كان تنظيم "ميسون" يهدف من وراء ذلك إلى الانفكاك من الحلف الغربي (الأمريكي)، والاتجاه نحو الكتلة الشرقيَّة (الاتحاد السوفيتي)، وذلك بطريقة سلسة، يتم خلالها تكوين جيش شعبي يحِلُّ مَحَلَّ الجيش الإمبراطوري؛ وتسنده الكتلة الشرقيَّة بكُلِّ المُستلزمات الواجب توفرها لإعداد جيش قوي.

غير أنه حدثت تقاطُعاتٍ كثيرة بين الجنرال الجديد "تيفري بانتي" وبقيَّة أعضاء المجلس، وعلى رأسهم "مانغستو"، وبدأ التناقُض يظهر في ترسيم سياسات الدولة بين الجنرال المُحافظ والعُصبة التي يتزعَّمها "مانغستو"، وتريد نهجاً يُغاير ذلك الخط، الأمر الذي لم يستطع معه هذا الأخير صبراً، فتمكَّن منه

"الغضب الثوري" أثناء اجتماع لمجلس "الدَّرق" يوم ٣ فبراير (شباط) ١٩٧٧، حيث «**غادر القاعة وترك بقيَّة الأعضاء، بينهم سبعة من الذين يعتبرهم أعداءه الرئيسيين، ثم عاد إلى مكان الاجتماع مع ثلة من أنصاره المُدجَّجين بالأسلحة الرشاشة، فأخذوا الأشخاص السبعة إلى مبنى قائم تحت الأرض، بما فيهم "تيفري بانتي" (رئيس الدَّرق)، والرائد المايو هايلي (سكرتير الدَّرق) والنقيب موقس وُلدو (مسئول الاقتصاد)، وأعدموهم جميعاً».** (٦)

ثمَّة رواية أخرى لشُهود عيان آخرين، تشير إلى أنه بعد عودة "مانغستو" مجدداً إلى قاعة الاجتماع، ازداد الشدِ والجذب، فأصدر أوامره لمَن معه بفتح النيران على السبعة المذكورين، وبعد تنفيذ المهمَّة غادر "مانغستو" القاعة بخطى ثابتة، إلا أنَّ بعض حرس الجنرال تيفري، الذين كانوا لا يعلمون مَن قَتَلَ مَن تصدَّوا له، ولكنه نجا بأعجوبة بعد أن ألقى بنفسه داخل دبَّابة صغيرة كانت مرابطة أمام باحة الموقع، وأمر أحدهم بقيادتها والفرار بها.. انطلقت الدبَّابة الصغيرة في شوارع أديس أبابا المكتظة بالبشر، ولا أحد منهم يعلم ما الذي يجري حقيقة بين الرِّفاق في داخل الغُرف المُغلقة.

نُفِّذت تلك المُهمَّة بدمٍ بارد، والمُؤكَّد بأن من يُقدِم على تنفيذها بالسيناريو المذكور، لا مناص بعدئذ من أن يُنصِّب نفسه رئيساً، وذلك ما حدث تماماً ببيانٍ مقتضب تلاه "مانغستو" بنفسه، وأصبح "أتنافو بانتي" نائباً له، ولم ينسَ أن يُلحقَ البيان بآخر أكثر اقتضاباً أعلن فيه إعدام الجنرال تيفري، باعتباره كان يمثل "وجهاً مستتراً لبقايا القوى الرجعيَّة".

كانت هذه العبارة تعني التطبيق الفعلي للشعارات الاشتراكيَّة، وأصبح تداولها يدغدغ المشاعر ويشيع النشوة في نفوس الثوّار الجُدُد، وقد دخلت القاموس السياسي الإثيوبي منذ تلك اللحظة، وبدأ أولئك يمضُغونها كما يمضُغون الطعام، وتبعاً لذلك، قام "مانغستو" على الفور بتدشين حملة "الإرهاب الأحمر"، ولأنه حتى ذاك الوقت كان يبدو طيِّعاً في يد قادة تنظيم "ميسون"، فلم يتردَّد في تنفيذ كل ما يذرُونه على سَمعِهِ، فوجد هؤلاء الفرصة المناسبة وأشاروا عليه بتصفية قواعد وكوادر الحزب الثوري.. لم يتوانى من إفراغ مخزونه الثوري فيهم، والذي ادَّخره يوماً بانتظار تطبيقه على ارض الواقع.. فأقدم على حملة اعتقالات واسعة، استهدفت أعضاء الحزب، وقام بسجنهم وقتلهم والتنكيل بهم.

لم يجد "مانغستو" كبير عناءٍ في تطبيق سياسات التخلص من الجيش الإمبراطوري، لأنه لم يجد سوى بقايا بعد أن طحنت الحرب في إريتريا والأوغادين غالبيتهم (٧)، وآثر بعضهم الهروب بعد الانقلاب على الإمبراطور. كان "مانغستو" يسير بخُطى متعجِّلة في إدارة السُّلطة، واتخذ العُنف وسيلة لتحقيق أهدافه من جهة، ولبَثِّ الرُّعب والخوف في نفس كل من تسوّل له نفسه معارضة ذلك النهج من جهة أخرى.

لم يكن أتنافو آباتي، الذي اتخذه نائباً له يعارضه بصورة واضحة، ذلك لأنه كان يتبع خطاً مرناً في معالجة قضايا الدولة، ولم يرُق ذلك لـ"مانغستو"، ولهذا كثيراً ما حدث التشاحُن والاحتكاك بينهما، ولكن مانغستو لا يملك وقتاً لإهداره في مثل تلك الأمور، إذ استدعاه إلى مكتبه، وعند حضوره، خطا معه حذو النعل بالنعل إلى **«نفس المبنى، الذي أعدم فيه تيفري بانتي وأعدمه».** (٨)

باغتيال أتنافو، اتضح بالفعل أن الثورة قد أكلت بنيها، ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، فقد تبعه إعدام بعض قادة الوحدات العسكريّة من كبار الضُبّاط.. بل امتدّ حتى أوساط المدنيين، حيث أخذ كثير من الناس بالشُبُهات، وهكذا عَمَدَ مانغستو هيلاماريام إلى تثبيت سُلطانه بالدم، عوضاً عن الأسطورة التي استخدمها أسلافه الأباطرة، كابراً عن كابر.

كان "مانغستو" يقوم بتنفيذ كل السياسات التي رسمها "ميسون"، ومضى في بعض المواقف إلى أكثر مِمّا كان يطمح إليه التنظيم، وجرّاء ذلك، عاش التنظيم أزهى فتراته التاريخيّة، وملأ الزهو نفوس قادته والقائمين عليه، وهُم يرون أن برامجهم التي حلموا بها استنـزلها إلى أرض الواقع من وضعوا عينهم وثقتهم فيه، ولم يخِب ظنهم.. لكن السُلطة دُرُوبها وعرة، ومعابرها صعبة، وحُكم بلدٍ كإثيوبيا ملئ بالتناقُضات الاجتماعيّة وكثير التبايُنات القوميّة والعرقيّة، ويعِجُ بالمشاكل السياسيّة والاقتصاديّة الضخمة، مِمّا ليس من السهولة بمكان. لهذا كان حتماً أن يشوب علاقة "مانغستو" بتنظيم "ميسون" بعض التوتر، وبدأت الخلافات تتفاقم بينهما عندما أصبح قادة الحزب يتوجّسون من التطبيق الذي لم يخلُ من مزايدة للبرامج الاشتراكيَّة، فقد كانت الجُرعة أكثر مِمّا تمنوا وأكبر مِمّا عَمِلوا له، وبدأ بعضُهُم ينتقد ذلك انتقاداً واضحاً.

ومثلما كان الحال بين جنرالات الانقلاب، الذين دبّت بينهم الخلافات فأودت بحياة بعضهم، انسحب السيناريو نفسه على أعضاء الحزب بسبب التناقُضات المذكورة، وهذا ما دفع "نيجيد غوبيزي"، أحد قادتهم البارزين، إلى ترك الساحة مبكراً، واختيار باريس كمنفى له في أغسطس (آب) ١٩٧٧.

نهاية حصان طروادة

من جانبه أيضاً، توجّس "مانغستو" خيفة من الصراعات التي بدأت تظهر في تنظيم "ميسون"، وخشي أن ينداح ذلك إلى مساحاتٍ أوسع، ويكون وبالاً عليه، فعقد العزم على أن يجرّعه من ذات الكأس التي جرَّعها الحز ب الثوري، لا سيَّما وانه قد أحسَّ بأنه لا حاجة له به، فالأدوات التي تزغلل العيون أضحت كلها بيده، ولا بأس من أن ينقلب السِحر على الساحر، خاصَّة وأن الطريق أمامه أصبح ممهداً للوصول إلى هدفه.

من جهته، قرَّر بعض أقطاب "ميسون" الإطاحة بـ"مانغستو" باعتباره منحرفاً عن خط الحزب، وسبباً في التبايُنات التي حدثت في أوساطه وأدَّت إلى

بروز مشاكل عميقة.. فشلت خطة الانقلاب قبل تنفيذها، فهَرَبَ رئيس الحزب "كِتِيدي مينعويشا" إلى شمال أديس أبابا وبعض الكوادر، حيث حُوصروا وقُتلوا وهُم يحاولون تجنب الاعتقال، ثم اعتقل هيلي فيدا (الأمين العام) ومعه العديد من القادة، وادَّعى "مانغستو" لاحقاً بأنه مات بسبب ظروف مرض طبيعيَّة.

كان سيناريو "مانغستو" و"ميسون" شديد الشبه - وإلى حدٍ بعيد- بما حدث في السُّودان في العام ١٩٦٩، في انقلاب العقيد جعفر نميري، وما تلاه في العام ١٩٧١ في الانقلاب المُضاد للرائد هاشم العطا.

في الواقع كانت الحركة الاشتراكيَّة لعموم إثيوبيا "ميسون" أشبه بحصان طروادة الذي امتطاه "مانغستو" للوصول إلى سُدّة الرئاسة، وبعد أن استنفذ ذلك الغرض انقلب عليه، وأطلق نحوه رصاصة الرحمة.

كانت هجمة "مانغستو" على التنظيم ضارية، وبدا أنه أخذهم على حين غرَّة، فتفرَّقوا أيدي سبأ، وعاد من تبقى منهم لأوكارهم التي هجروها، وبدأوا العمل من تحت الأرض، لكنهم ما لبثوا أن انقسموا إلى جناحين: "التحالف الديمُقراطي لشُعوب إثيوبيا" و"الجبهة الديمُقراطيَّة لشُعوب إثيوبيا"، غير أنَّ رحلة الزَّحف المُقدَّس نحو أبواب السُّلطة بكلفتها الباهظة التي ورد ذكرها، كانت قد أنهكت الثلاثة أفرع وجعلتها مجرَّد لافتات تفوح منها رائحة الماضي.

أظهر "مانغستو" شبقاً شديداً في ممارسة السُّلطة، وقد اتخذ القتل والترويع والترهيب وسيلة لتحقيق غاياته.. كان وهو يمارس ذلك مدفوعاً بعدَّة شخصيَّات تصطرع في شخصه، فهو يفعل ذلك مرَّة بدافع الحقد الطبقي الذي عاشه في طفولته وصِباه، وأخرى بسبب الرغبة في بثِّ الخوف والرُعب في كل من تحدثه نفسه لمنازعته كرسي الحُكم، وفي مرَّاتٍ كان يفعل ذلك وقد تقمَّصته أرواح أسلافه الأباطرة، ومرَّات أخرى وهو متشرِّب بأفكار "ميسون" التي ترى أن الموت هو قُدَّاس السُّلطة.

هكذا دانت السُّلطة لـ"مانغستو"، وخَلِيَت له الساحة تماماً بصعودٍ مُذهِل، من جندي بسيط في سلك العسكريَّة، إلى حاكم يدير خيوط اللعبة في الخفاء، إلى ديكتاتور مُطلق، صوَّب عينيه نحو الأحياء طامحاً في إعادة صياغتهم بمفاهيم اشتراكيَّة، بغضِّ النظر عن خصوصيَّة واقعها، بَهَرَ من تبقى من رفاقه بحُضُورٍ مُذهِل، جعلهم طوع بنانه، وحتى يتخلص من وسوسة الأموات، حفر للإمبراطور قبراً في مكتبه - كما ذكرنا- ودفنه فيه.. ثمَّ وضع كُرسيِّه الوثير على القبر ليُباشِر مهامه.

الغرب شرق.. والشرق غرب

بعد أن رتب "مانغستو" دعائم سُلطته من الداخل بالطريقة التي ارتآها، تطلع نحو الخارج ليُعضِّد ركائز حُكمه، شأنه في ذلك شأن كل انقلابي مغامر في ظِلِّ ظروف الحرب الباردة، والتطلع نحو الخارج هو في حقيقته نهجٌ ثابت لدى كل

الحُكَّام الذين تعاقبوا على حُكم إثيوبيا، فدائماً ما يتم تغليب هذا العنصر في مواجهة تناقُضات الشعوب الإثيوبية.

لم يكُن أمام "مانغستو" خياراتٍ عدَّة في هذا الشأن، بل هو فَعَلَ كُل الذي فعله من أجل استبدال حليف سلفه الإمبراطور (الولايات المتحدة الأمريكيَّة) بالحليف الآخر الغريم (الاتحاد السوفيتي).

كان الاتحاد السوفيتي - على عكس ما هو متوقع- قد التزم الصَّمت تجاه ما حلَّ بالرِّفاق في تنظيم "ميسون"، كأنما كانوا على قناعة بأن الذي سيفوز في سباق ماراثون السُّلطة سيُيَمِّم وجهه بالضرورة شطر الكرملين، وسيَّان عندهُم - أي قادة الكرملين- إن كان الزائر الذي سيصلهم للطواف حول ضريح لينين هو العقيد مانغستو هايلاماريام، أو الحركة الاشتراكيَّة لعموم إثيوبيا "ميسون".

وبصورةٍ أخرى أكثر مفارقة، لم يكُن مهماً الوسيلة التي سيصِل بها "مانغستو" حتى لو كانت جُثث الرفاق أنفسهم الذين حلموا طويلاً بإيصاله إلى الكرملين.. وقد وصله حقاً، لكن بعد أن وضعهم في طريق آخر.. يقودهم إلى القبر.

لم يكن تطلع "مانغستو" للقطب السوفيتي بغرض تدعيم أركان حكمه الداخليَّة فقط، لكنه في زحفه المثابر نحو موسكو كان يطمح إلى دعم عسكري ضخم يضع به حداً لانتصارات الثورة الإريتريَّة، وبالتالي طي تلك الصفحة وإلى الأبد، وكذلك إخماد الثورة التي بدأت في شمال إثيوبيا بقيادة "الجبهة الشعبيَّة لتحرير التيغراي"، إلى جانب إحكام قبضته على إقليم الأوغادين.

كانت الولايات المتحدة الأمريكيَّة قد استشعرت توجُّهات "مانغستو" نحو القطب الآخر في موسكو، وحفظاً لماء الوجه، آثرت الانسحاب تدريجياً من تلقاء نفسها، وقدَّمت تبريراً "أخلاقياً" لذلك، حيث أعلن وزير خارجيتها آنذاك "سايروس فانس" أن الانسحاب جاء احتجاجاً على انتهاك حقوق الإنسان، بعد إعدام "مانغستو" للجنرال تيفري بانتي.

كان الانسحاب بمثابة ضوء أخضر للحليف الجديد، ليحلَّ مَحَلَّ الحليف القديم، ولم يكُن ثمَّة مبرّر "أخلاقي" من الاتحاد السوفيتي لتقديمه، إثر مُفاضلةٍ سريعة بين دعمه لحركة ثوريَّة مناضلة، ممثلة في "جبهة تحرير إريتريا" وبين حكومة تقدميَّة قائمة ممثلة في نظام "مانغستو".

إبان الحرب الباردة، كثيراً ما واجه القطبان العُظميان امتحاناً عسيراً بين المبادئ والمصالح، وكثيراً ما رَجَحَت كفة هذه الأخيرة، بغضِ النظر عن أي صفاتٍ يمكن أن تلحق بهذا أو ذاك.

بعد أيام قلائل من انسحاب الولايات المتحدة الأمريكيَّة، والذي تمَّ في مارس (آذار) ١٩٧٧، كان الاتحاد السوفيتي قد وعد نظام "الدَّرق" الإثيوبي بتقديم دعم

لوجيستي يشمل تدريباً وصيانة وإرشادات عسكرية ترقى إلى درجة المشاركة الكاملة في القتال جنباً إلى جنب مع القوات الإثيوبية في جبهاتها المفتوحة.. إضافة إلى دعم عسكري كبير، يشمل طائرات 'ميج' المُقاتلة ودبّابات حديثة ومدفعيَّة بعيدة المدى، وذلك «**بما قيمته ٤٠٠ مليون دولار أمريكي، وكان لدى إثيوبيا احتياطي من العُملات الأجنبيَّة لا يقل عن ٣٠٠ مليون دولار، وقد تلقت دعماً من ليبيا مِمَّا أمكنها البحث لشراء الأسلحة**».(٩) على الرغم من أن انهيار التحالف بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكيَّة «**أفقدها إمدادات أسلحة أمريكيَّة مقرَّرة سابقاً بما قيمته ١٠٠ مليون دولار**».(١٠)

لكن ذلك لم يكن بذي أثر بالغ في السنوات التالية، لأنه بموجب التأثير السوفيتي على دول الكتلة الشرقيَّة، أصبح السلاح يتدفق على إثيوبيا مثلما يتدفق عليها مطرها الدائم، حتى «**بلغ في العام ١٩٧٨ ما قيمته أكثر من مليار دولار أمريكي**» (١١)، وبعد شهر من الأريحيَّة العسكريَّة السوفيتيَّة الداعمة لإثيوبيا - أي أبريل (نيسان) ١٩٧٧ - كان "مانغستو" قد وصل إلى موسكو، ولكن قُبَيْل مغادرته أديس أبابا، آثر أن يمحو ما تبقى من الوجود الأمريكي في إثيوبيا وإريتريا، فأمر بإغلاق محطة "كاغينو" وروافدها الأخرى (وحدة الأبحاث البحريَّة، مكتب المعلومات، المجموعة الاستشاريَّة للمساعدات العسكرية).

فتحت زيارة موسكو الأبواب المغلقة للكولونيل مانغستو هايلاماريام، ولم تتوقف عند حدود الدعم العسكري، فقد امتدَّت إلى النواحي الثقافيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة في إثيوبيا، وحدث تطبيع - بل تطبيقٌ كامل- للنظرية الماركسية في شتى أوجه الحياة الإثيوبية، وشملت تلك الدائرة كوبا - الحليف الأساسي والوفي للاتحاد السوفيتي إلى الآن رغم زوال ظله- ولم يكن عصياً على السوفيت إقناعها بضرورة دعم الحكومة التقدميَّة الجديدة في إثيوبيا، كما أن كاسترو نفسه لم يجد حرجاً آنذاك - بعد تحوُّل البوصلة- في أن ينعت الثورة الإريترية التي كان يصفها في خطبه بالتقدميَّة، إلى النقيض الذي يوصمها فيه بالرجعيَّة والانفصاليَّة.

كما أن "لُعبة المصالح" في ظِلِّ الحرب الباردة لم تتوقف عند مفاضلة الاتحاد السوفيتي بين الثورة الإريتريَّة والحكومة التقدميَّة الإثيوبيَّة، وإنما امتدَّت أيضاً لمُفاضلته بين هذه الأخيرة وحكومة أخرى تقدميَّة في الصومال، كانت له معها علاقات وطيدة منذ أن وطأ "سياد بَرّي" السُلطة بدبّاباته في العام ١٩٦٩، ولم يكن ثمَّة عزاءٍ يُذكر يُقدِّمه السوفيت لسياد بَرّي وهُم يُحرّكون أساطيلهم وبيادقهم من الصومال إلى إثيوبيا، سوى ذرِّ المزيد من لغة المصالح على مسامعه.

كان لهذا التحوُّل في الحقيقة سببان: <u>الأول</u>، إستراتيجي حكمه الموقع الذي تتمتع به إثيوبيا بإطلالتها على البحر من خلال إريتريا المحتلة، وهو أكثر إغراءً من الموقع الأقل إستراتيجيَّة الذي تتمتع به الصومال.. أما العامل <u>الثاني</u>، فقد كان حول إمكانية تطبيق المنهج الماركسي في واقع تراه موسكو أنه مشابه إلى حدٍ ما

من حيث تعدُّد القوميات في الدول التي تكوَّن بموجبها الاتحاد السوفيتي نفسه، أما في الصومال وبعد تجريبٍ استمرَّ عدة سنوات، فقد اتضح صعوبة تغلغل الفكر الماركسي في واقع محكوم بإرثٍ قبلي متزمِّت ومشدود إلى عقيدة دينيَّة صارمة.(١٢)

فرض الوجود السوفيتي المكثف، وتالياً الكوبي والألماني الشرقي على إثيوبيا واقعاً جديداً، جعل منطقة القرن الأفريقي الأكثر أهمية في القارة كلها.

بدأت سياسة الأحلاف تنداح رويداً رويداً، وتنعكس توتراً على المنطقة، كانت القضيَّة الإريتريَّة - وإن عاد إليها بعض الاهتمام- أشبه في غمرة تلك الصراعات الخفيَّة بوضع اليتيم على مائدة اللئام.

في الإطار الإقليمي انبثق حلفٌ جديد سُمِّي بـ‘‘حلف عدن’’ (ليبيا، اليمن الجنوبي، إثيوبيا)، وظهر ترياقٌ آخر مُضادٌ له، سُمِّي بـ‘‘دول الطوق’’ (مصر، السودان، المملكة العربية السعودية).

أصبح المحوران يخططان للكيد من بعضهما البعض.. كانت كل دولة تتربَّص بالأخرى للإطاحة بنظامها، بدعوى الحفاظ على أمنها القومي، ومن الخلف كان القُطبان العُظميان يضعان الخُطط الإستراتيجيَّة المُحكمة، ويغذيانها بأسلوب الغاية تبرِّر الوسيلة، دون التوقف أو الالتفات لما من شأنه أن يتعارض مع ذلك المنهج، فلا مجال للإرادة الوطنية مع لغة المصالح المُغلفة بضرورة حفظ التوازن الدولي. كانا ببساطة شديدة يُمسكان خيوط اللعبة ببراعة موهوبي ‘‘مسرح العرائس’’ الجالسين خلف ستارة العرض، ويحرِّكان من البُعد تلك الدُمى التي تُضحِك المشاهدين.

أما ‘‘مانغستو’’ في داخل إثيوبيا فقد استقرَّت السُلطة في يده تماماً بعد زيارته ‘‘التاريخيَّة’’ التي قام بها إلى موسكو في أبريل (نيسان) ١٩٧٧، فانهال عليه الدعم مادياً ومعنوياً من الحليف الجديد، والذين يدورون في فلكه، إذ وصلت ترسانة الأسلحة العسكريَّة السوفيتية التي ورد ذكرها بالتفصيل، وبدأ جنود كوبيون وكتائب من اليمن الجنوبي يتأهَّبون للمشاركة في العمليات، إضافة إلى دعم لوجستي من ألمانيا الشرقيَّة. وموازاة مع ذلك، قام ‘‘مانغستو’’ في داخل الأقاليم بتعبئة ضخمة في أوساط القوميات الإثيوبيَّة بهدف تكوين مليشيات شعبيَّة تقاتل جنباً إلى جنب مع القوى النظاميَّة.

بتكامُل الوسائل التي كان يسعى إليها ‘‘مانغستو’’، تملكته ثقة مطلقة في قدرته على حسم حروبه المفتوحة في الجبهات الثلاث، وفي فترة زمنيَّة قليلة. وإزاء هذا الإحساس العارم بنصر مُسبَق لم يتحقق، وكذا الاعتقاد الجازم في أسلوب القوّة لحسم القضايا المُزمنة، هذا وذاك عقَّدا أكثر من شخصيَّة ‘‘مانغستو’’.

obeikandi.com

جسَّد هذه الصورة نفس رفيقه "داويت وُلدي جرجيس" الذي كان رأيه فيه إيجابياً بداية سنوات حُكمه، والذي أوردناه في صدر هذا الفصل.. ابتدر "داويت" وصف الصورة الأخرى بقوله: «**بعد أن عزّز "مانغستو" مركزه في العام ١٩٧٨، لاحظ الناس أن طبائعه قد بدأت تتبدَّل، واختفت خاصيَّته في الاستماع إلى آراء الآخرين في رويَّة وصبر، وانكشف للجميع أنه لم يكن يُبدي تلك الخصال الحميدة إلا سعياً منه للحصول على دعم الآخرين، وأصبح كل يوم أكثر عدوانية وتكبُّراً.. أكثر انتقاماً وقسوة وديكتاتوريّة، وأصبح يستخدم في تحرُّكاته العربات المُدرَّعة التي كان يستخدمها الإمبراطور هيلاسلاسى، وأخرى استوردها في عهده، كما أصبح في المناسبات الشعبيَّة يتجنب الجلوس بجانب كبار رجال السُّلطة، ويختار الجلوس على كرسي خاص موشى بالذهب، يوضع في مكانٍ بارز، كنا ننتظر ثورة تحقق المُساواة، ولكن وجدنا "مانغستو" قد أصبح الإمبراطور الجديد.. لقد تفشت هذه الظواهر لدى كافة مسئولي "الدرق"**». (١٣)

ربَّما تكون في تلك الشهادة بعض المُغالاة، وربَّما تكون مجروحة - كما يقال- باعتبار أن قائلها كان أحد أعمدة النظام نفسه ولمدَّة عقد كامل من الزمن، وإنه بعد انشقاقه قد تكون سيطرت عليه مشاعر معيَّنة عند كتابتها، لكن مع كل ذلك فنصفها يكفي كنموذج لسلوك الحاكم الفرد، وأياً كان الرأي، فتصرُّفات "مانغستو" السلبيَّة في السُّلطة لم تكن من الخفاء بحيث يصعُب ملاحظتها، ويكفي أنه قد أحاط نفسه بهالة من الألقاب التي تكرِّس ديكتاتورية الفرد، فهو رئيس جمهورية إثيوبيا الاشتراكيَّة، ورئيس مجلس الوزراء، والقائد الأعلى للقوات المسلحة، ورئيس "الدَّرق"، وسكرتير الحزب الحاكم، إلى جانب العديد من الألقاب الأخرى الأقل أهميَّة. ولم يكن ذلك نهج "مانغستو" وحده، فقد سبقه آخرون، وسار على دربهم الكثيرون.

بعد اكتمال استعدادته، وضع "مانغستو" أولوياته العسكريَّة بدءً بالجنوب، فوجَّه قوَّاته التي يساندها الخبراء والفنيون من الاتحاد السوفيتي، وحُلفائه من الكوبيين واليمن الجنوبي نحو إقليم الأوغادين، وبفضل هذه القُوى الضاربة والضعف الذي كان يعتري القوَّات الصوماليَّة، حققت نصراً كاسحاً (اضطرَّ سياد برّي فيما بعد إلى عقد اتفاق مع مانغستو قدَّم فيه تنازُلاتٍ كثيرة)، وفي الواقع كان سياد برّي يعاني فراغاً انعكس على أوضاعه السياسيَّة والعسكريَّة بعد تخلي الحليف السوفيتي عنه، وبطء الاستجابة من القطب الآخر (الولايات المتحدة) الذي وجَّه بوصلته نحوها.

بعد الانتصار الذي حققه "مانغستو" في الأوغادين، بدأ يُعِد العُدَّة لتوجيه ضربة قاصمة تقضي على الثورة الإريترية.. ولنتوقف هنا لنرى ماذا حلَّ بالثورة الإريترية قبل أن ينوي "مانغستو" إغراقها في طوفانه.

هوامش الفصل الثالث

(١) ميسون.. الاسم الأمهري المختصر للتنظيم.
(٢) الأرقام مأخوذة من "أثيوبيا الثورة المجهولة" - راؤول فالديس فيفو.
(٣) دموع حمراء RED TEARS ـ داويت وُلدي جرجيس DAWIT WOLDE GEORGIS - صدر في يناير ١٩٨٩، المذكور شغل عدة مناصب في نظام الدِّرق، منها وكيل وزارة الخارجية -ممثل الدَّرق في إريتريا - عضو اللجنة المركزية لحزب الإيسبا - رئيس مفوضية الإغاثة وإعادة التأهيل ٨٤-٨٥ وهي أحلك سنوات المجاعة في عهد مانغستو هايلاماريام.
(٤) الصراع في القرن الأفريقي - برخت هبتي سلاسي - ص ٢٠٥.
(٥) في مارس (آذار) ١٩٩٢، قامت الجبهة الحاكمة في إثيوبيا بنبش قبره ودعوة ابنه أسفها وسن، الذي يعيش لاجئاً في الولايات المتحدة الأمريكية للإشراف على دفن رفاته في مقابر الأسرة الإمبراطوريَّة تكريماً له، لكن الجبهة قصدت بتلك الخطوة تمتين جسور الثقة والعلاقة مع قومية الأمهرا.
(٦) دموع حمراء ـ مصدر سابق.
(٧) كانت الجيوش الصوماليّة على بعد ٢٥٠ كيلومتراً فقط من العاصمة أديس أبابا عند حدوث التغيير، وقد قدر الجيش الإثيوبي في عهد الإمبراطور بنحو ثلاثين ألف جندي.
(٨) دموع حمراء ـ مصدر سابق.
(٩) وراء الحرب في إريتريا ـ مصدر سابق ـ ص ٨٤.
(١٠) المصدر نفسه ص ٨٤.
(١١) المصدر نفسه ص ٨٥.
(١٢) الصوماليون يدينون جميعهم بالدين الإسلامي، ويتبعون في ذلك المذهب الشافعي دون سواه من المذاهب.
(١٣) دموع حمراء ـ مصدر سابق.